

## الكيس السحري

استيقظ الجميع في ذلك الصباح الخريفي الصقيعي على وقع عراك بين الزوج "العايشي" و الزوجة " الواضحة ". كان أساس الخلاف و كنهه ما سُمي ب : " قضية الولد". و كان الطفل "بوشتي" لا يلوي على شيء و هو يسمع كل صباح و كل مساء تلك الجملة الاسمية تتردد دون أن يعرف مضمونها. و لم تكن قضية الولد، تلك، إلا تفاحة شقاق بين العياشي و الواضحة حيث يتجادبان فيها أمرين متضادين تمامًا. الأمر الأول من جهة الأم التي تلح و تناضل من أجل تسجيل الابن في المدرسة ، و الأمر الثاني هو العناد القوي الذي أبداه العياشي اتجاه الأمر الأول ؛ إذ لم يتقبل فكرة ذهاب بوشتي إلى المدرسة ، بل ما برح يفضل إبقاءه خارج المدرسة عاريا من العلم و الزج به في أحضان مزرعة أحد الفلاحين و كل ذلك اعتقادًا منه أن الولد سيساعده في إعالة الأسرة البئيسة. أُخبرَ بوشتي أن سنه لا يسمح له الآن بالجلوس في البيت مع أمه ، و أنه لا بد من ارتياد مكان إسمه "المدرسة" . أجل ، لقد سجل بوشتي أو حفظ أنه مرشح لكي يكون في القريب العاجل أحد الضيوف المرغوبين لدى المدرسة المتواجدة في القرية المناخمة لقريته ، و كان يتمنى أن يكون ناجحًا دون أن يدري فحوى النجاح. و كان خياله الصغير لا يحفظ أكثر من كلمة " أمي " و " أبي " ، و لا يتسع لتصور أكثر من مدرسة في بلده .. لم ييأس بوشتي من النظر إلى أبيه و كأنه يقول له في صمت بريء : " هل ستتركني عاريا من العلم كما تركتني عاريا من الملابس؟! " قال العياشي للواضحة و هو يلس شاربه من الغضب : " لقد مللتُ التحدث في قضية الولد ، و إن كنت تصرين على أن يلج ابنك المدرسة فليفعل و لكن بشرط ألا أصرف عليه درهما واحدا."

- و الله يا العياشي، بتصرفك هذا تريد أن تختار لابنك الوحيد طريق الفقر والجهل .

لم تتمكن الواضحة من إقناع العياشي بتحمل مصاريف الدراسة للولد. رغم كل ذلك، قالت في نفسها : " لا بأس ، على الأقل وافق العياشي على ذهاب الولد إلى المدرسة."

دق الفقيه الباب، و كانت الأمطار " خيطا من السماء " ، استقبلته الواضحة بينما كان العياشي مسلتقيًا بالقرب من موقد التدفئة يداعب سبخته الطويلة. طلبت الواضحة من الفقيه الجلوس. بعدما اتكأ على حصيرة هرثة، و ناولته أكاسًا من الشاي ، قال الفقيه : " أين بوشتي ؟ أجابه العياشي : " إنه لن يذهب الآن إلى المدرسة طالما لم أفكر بعد في الأمر. أجابه الفقيه بأريحية : " ليس هناك شيء ستفكر فيه بعد اليوم. أبشرك لقد سجلته بالأمس مع كل أبناء الدوار البالغين سبع سنوات." حسنًا، إن كان الأمر كذلك يمكن لك اليوم أخذه إلى المدرسة. كان بوشتي يكاد يُجن من الفرحة عندما أمسك الفقيه بيده ، لكن الواضحة نزعته يده من يد الفقيه ، إذًاك هم الفقيه بالخروج غاضبًا : " المشكلة فيك أنت يا الواضحة!" رافقته الواضحة إلى الباب و همست إليه بكلام فهز رأسه و انصرف مع باقي الأولاد الذين كانوا ينتظرون بوشتي بالخارج. كانت الواضحة قد قررت أن تذهب بنفسها مع بوشتي إلى المدرسة و أفهمته بأن " قضية

الولد " ستجد طريقًا إلى الحل، لا محالة. و كان بوشى قد ضاق أفق أملة بعدما رأى الفقيه و قد غادره بدون أن يفهم لغز ذلك. عندئذ لم يجد بوشى أحدًا ينظر إليه إلا أمه التي كانت تنظر إليه نظرات مطمئنة. و لكنها أيضا نظرات توبيخ للعياشي الذي رضي لأسرته أن تعيش في عار الجهل ، دون أن تخلّف وراءها نزرًا من نور العلم؟! و قد استمر العياشي في الاستلذاذ بدفء الموقد حتى نام دون أن يذهب إلى السوق و لا حتى يجهز الحطب كما اعتاد دائمًا. بينما قررت الأم الذهاب مع ابنها بوشى إلى المدرسة إذ ألبسته معطفًا صوفيًا كبيرًا يكاد يحجب كليًا جسمه النحيف. إنه معطف كان لأخيه الأكبر: الجيلالي الذي قضى بعدما سقط في بئر سحيقة داخل إحدى المزارع التي كان يشتغل بها. قال لها بوشى: " إن هذا المعطف أكبر مني و لا يناسبني. " قالت: " إلبسه اليوم فقط و غدًا سأبحث لك عن معطف جميل بمقاسك. " و قد صدّق الولد كلام أمه لأنها لم تكذب عليه قط. و لبست الواضحة برنس العياشي الأزرق الفضفاض و انطلقت مع ابنها يعاكسان الرياح العاتية و الأمطار المنهمرة. لقد ابتلاّ بالكامل، بحيث لا تجدي مناعة الملابس أمام شراسة ذلك اليوم الخريفي. و راحا يعبران الوادي تلو الوادي و كان الولد يئن من شدة البرد و التعب أما أمه فكانت تخفي امتعاضها و ألمها ، حتى إذا عجز بوشى عن المشي حملته على ظهرها و سارت تجر كيسًا من الخيش كانت تحمله لو طر لم يعلمه الولد. و كانت تطيق بمشقة كبيرة ثقل الولد لأن معطفه الكبير قد ابتل و صار ثقيلًا. فهي تحمله على مضض و تنزله على مضض . إلى أن خارت قوى بوشى و توقف تمامًا عن المشي بلّ و سقط على الأرض. لذلك فكرت الأم في أن تترك كيس الخيش و تحمل ابنها، لكن تذكرت أن لا فائدة من إيصال الولد إلى المدرسة من دون الكيس . حسنًا لقد توصلتُ إلى حل وسط فلا هي تاركة الولد و لا هي تاركة الكيس! فتارةً تحمل الولد و تترك الكيس و أخرى تحمل الكيس و تترك الولد ، حتى استعاد بوشى شيئًا من قوّته. و في نصف الطريق لم تعد الأم تطيق حمل أي شيء و هي التي كلّت من حمل ابنها و الكيس كلاً، خصوصًا لما تطايرت بعض حبات الزيتون على وجهها فتورّمت إحدى عينيها. و قد واصلت الواضحة الطريق و هي تجرّ ابنها و الكيس الكبير ، حتى وصلت إلى المدرسة التي استحالت بركة ماء كبيرة وسط غابة من شجر الصفصاف التي كانت أوراقها الصفراء تتطاير و كأنها تنذر بيوم لا كالأيام. و كان يتراءى في أحد أبعاد تلك المدرسة رجل ضخّم البنية ذو شارب حاد و كان يلبس جلبابًا صوفيًا . و بينما كان يقطع أخشابًا لاحظ تواجدهما بالقرب من البوابة فأشار عليها ، و قد فهمتا أنه يقول لهما : " هيا اقتريا ، تعاليا ... " و سارا بخطى متثاقلة باتجاه الشخص في جو ملؤه الخوف و الحيرة و التردد و مشوب بقليل من التفاؤل. و لكنهما لم يستطيعا الوصول إلى ذلك الرجل بسبب الأوحال و البرك المائية. و بعد عناء كبير وصلتا إلى القرب من ذلك الرجل الذي صاحبهما إلى حجرة و قال لهما : " انتظرا هنا إلى حين أن يحضر المدير. كانت المدرسة تبدو من الخارج وكأنها خالية مقفرة ، لكن كلما فتر صوت المطر تعالت أصوات الأطفال من أعماق الفصول . و كان بوشى كلما سمع تلك الأصوات أمسك أمه من ذقنها و قال لها منشرًا : " أمي ، إنهم أطفال في الداخل ، سأذهب لألهو معهم ، قولي لي " نعم " يا أمي ". قالت له أمه : " نعم " . فازداد انشراحًا. أما غرفة المدير فكانت حجرة آيلة للسقوط. يقطر بل ينهمر الماء من سقفها انهمازًا !! و فجأة دخل المدير و جلس على كرسية الخشبي و الماء يقطر من جلبابه القطبيّ الورداني. قال لها في نبرة خالية من الرحمة : " أين أبوه ؟ " أجابته بأن الأب مريض. و بعد أن كتب على ورقة، سلمها إياها. استلمتها منه و هي لا تدري ما كتب عليها. الشيء الذي جعلها تبدو مذعورة

خصوصًا وأن مثل تلك الورقة تذكرها باستدعائها إلى مكتب الدرك بعد اتهامها بسرقة بيض جارتها السعدية . أمرها المدير بأن تنتظر حتى تفتت الأمطار ثم تنصرف، لكنها قررت الذهاب في الحال و لا يهمها إن فترت الأمطار أو لن تفتت . قالت له: " يا سيدي .... أريد أن أذهب الآن لأني أريد ...." قاطعها المدير : " ما ذا تريدين؟ قلت لك انتظري انتظري وإلا فارحلي و ابنك دون أن تكسري رأسي بكلامك الكثير." قالت: " حسنا ، و لكن هل لي أن أعرف ما بهذه الورقة ؟ " أجابها بقساوة لا تقلّ عن قساوة ذلك اليوم : " أين كنت حين كان الناس يتعلمون القراءة و الكتابة ؟ اذهبي إلى السوق و سيشرحون لك ما في الورقة ، و ما عليك إلا أن تدلي بنقودك". ورغم أن الواضحة لم تتعلم الأبجدية المدرسية لكنها كانت ذات حصافة جعلتها تفهم كلام المدير فهرعت تمسك بيد ابنها ، استوقفها المدير لحظة قائلاً : " أما الولد فلا بد من أن تتركه هنا." بيد أنها رفضت أن تترك الولد متذرة بكونها ستذهب به إلى البيت لكي تُفطره و تُلبسه. عقب عليها : " لا بأس ، أفطريه و ألبسيه ، على أن لا تعودا إلى هنا بدون توفير ما على الورقة." غادرت الأم المدرسة مع ابنها من طريق غير الذي أتيا منه. و ارتأت أن توهم ابنها بأن تغيير الطريق كان بغية تفادي الأودية و السواقي العميقة، و كانت الأمطار قد فترت لبعض اللحظات ، بدأت بعض جنبات السماء تنقش غيومها بعد أن تلبدت. لقد طال بهما المسير ، و في أثناء ذلك سأل بوشتي أمه مرة أخرى: " هل الطريق أطول؟" قالت : " نعم ولدي ، فقط لنتجنب السواقي الوعرة" حسناً أمي، و لكنني لا أستطيع المشي أكثر. إذًا حملته أمه كما تحمل كيس الخيش ، و سارت تتمايل تحت وزر ابنها و الكيس، حتى اقتربت من القرية التي هي مقر السوق الأسبوعي ، و بدأت تظهر لها عدة أبنية بسيطة متناثرة هنا و هناك و أناس يركبون دوابًا، و بالقرب من بعض المنازل كانت هناك كلاب بعضها يئن من شدة البرد و البعض الآخر كان لا يقوى على النباح. و فجأة سأل بوشتي أمه : " لماذا تحملين ذلك الكيس الكبير يا أمي، و ما ذا بداخلك؟" كانت الأم منهمة في التفكير في شيء ما بحيث لم ترد عليه، لكنه ألح على السؤال مرة أخرى ؛ حينئذ ردت عليه عن مضض : " إنها مستلزماتك المدرسية . " و رغم أنه لم يفهم كلامها ، إلا أنه اقتنع بأنه سيحصل على شيء ما و لا يهمه اسم ذلك الشيء. و بعد وصولهم إلى مشارف القرية تيقن الولد أن الطريق الذي سلكه لم يكن ليفضي إلى المنزل. و قد اراد أن يسأل أمه لكن قاطعته : " لقد وصلنا إلى السوق." أركنت الأم بوشتي بجوار جدار و أمرته بالوقوف و الانتظار هناك حتى تنتهي من وطر لها و ترجع إليه ، ثم حملت كيس الخيش و اختفت بين جنبات السوق، بينما بقي هو منزويًا بجانب الجدار ينظر إلى المارة لكن دون أن ينسبه ذلك شدة البرد القارس. و عندما كَلَّت قدماه من كثرة الوقوف جلس أرضًا ، ما أن هم بالجلوس حتى عادت الواضحة لكن بدون كيس الخيش. بل بدلا من ذلك أتت تحمل كيسا أصغر تتراءى من داخله أشياء لم يَرِ قَط مثلها في حياته. كما أحضرت له كيساً آخر أخرجت منه خبزاً و قطعة من جبن بلدي، ناولته الخبز و الجبن و مضى يأكل بِنَهم ، في حين اكتفت الأم بالنظر إليه تارة بشفقة و تارة أخرى بشغف، تمامًا كما تنظر القطة إلى صغارها في وقت الشدة. و لما انتهى من أكله سألته : " هل شبعت؟" نظر إليها وكأنه لا يعرف معنى " شبعت " ، بل كان يتساءل في نفسه " كيف حولت أمي الكيس إلى كيسين !!!" ثم قال لها : " أريد الشاي . " كان بوشتي مدمنا على الشاي حتى أن أمه كانت تمنعه أحيانًا كثيرة من شرب الشاي بدعوى أن ذلك المشروب كان هو السبب الرئيسي في تبوله في الفراش. و كان من فرط تناوله الشاي لا يكاد يفرق بين الوجبات ففي كل وجبة كان الشاي سيد المائدة و كان خبز الشعير الوزير الحاضر الغائب بينما كانت زيت

الزيتون أو فطيرة " الحرشة " فلما تواجدت فوق المائدة. و من شغفه بالشاي كان بعد عودته من "المسيد" يتربص بالمطبخ عسى أن يتصيد إبريقًا تهاونت أمه في غسله و بقيت فيه جرعة أو جرعتين من "شاي الأمس". طلبت منه أمه أن يقوم لكي يرجعاً إلى المدرسة و قد اشترت له لباسًا صوفيا . كما استعارت حمارًا فاستقلته إلى المدرسة. كان الوقت زوالا و المطر قد فتر عندما وصلا إلى المدرسة. سلمته أمه الكيس و قالت له : " أدخل " . قطع برك الماء و وصل إلى جانب الفصل ، و كان هناك شخص أشار عليه بالدخول. نظر إلى وجه ذلك الشخص و كأنه لا يقبل أن ترسم عليه ابتسامة أو توسم عليه بشاشة. أجلسه على المقعد الخشبي المزدوج، و إذا بأحد التلاميذ يخزه من ظهره و يقول هامسًا: " هل تغديت " . لم يجرؤ بوشتي على إجابته أو حتى الالتفات إليه خشية أن يراه المعلم. و فجأة دنا المعلم منه و أخذ الكيس الذي كان بجانبه و فتحه ثم بدأ يسحب منه دفاتر و أقلام ... كل ما كان المدير قد كتبه على ظهر الورقة التي سلمها للواضحة. لقد اشتمل الكيس على كل ما يلزم من أدوات مدرسية. و مع ذلك فإن المدير بدا متحسرا لكون بوشتي سيفلت من العقاب. نظر المعلم إلى باقي التلاميذ قائلا : " هل ترضون بأن يحضر بوشتي الأدوات قبلكم؟! اسمعوا جيدا أيها الضباع، إن لم تحضروها غدًا كاملة مكمولة ستنالون الفلقة بهذه ( مشيرًا إلى عصا الرمان) ، و سوف لن أقبل عذر أي أحد منكم . هل فهمتم؟" أجاب الطلاب و هم يرتعشون في آن واحد من البرد و من رهبة الخوف: " نعم فهمنا " .بدأت الأمطار تنهمر على المدرسة ، و لم يكف المعلم عن النظر إلى الخارج مستمتعا بالأمطار المنهمرة ، و كان التلاميذ يتلذذون بدقات المطر على السقف الصفيحي للفصل . و استمر الكل على ذلك الحال حتى بدأ الظلام يعتم على الفصل. و رأى بوشتي أن الجميع كان مسرورًا بحلول الظلام، و لكنه لم يعرف سر ذلك. و تبين له بعد حين أن الظلمة هي الفرصة الوحيدة التي تمكن التلاميذ من الغدو إلى منازلهم. طلب المعلم من التلاميذ القيام فقاموا و طلب منهم الجلوس فجلسوا و طلب منهم أن يرددوا نشيد الوداع فرددوا منشدين : " إلى اللقاء يا مدرستي ، إلى اللقاء يا معلمي ... " ثم أشار عليهم بعصا الرمان بأن ينصرفوا فهولوا نحو الخارج... لكن بوشتي انزوى بجانب باب الفصل و كان يفكر في أمه التي لم يفارقها منذ ولادته ، و كيف له أن يعود إليها أو تعود إليه في ذلك الظلام الدامس المطبق الحالك. ابتعد عن الباب قليلا و كأنه خطا خطوة أو خطوتين بينما هرول زملاؤه وسط البرك و كان هو لا يرى شيئًا فقط كان يسمع وقع الأقدام و هي تدوس الأوحال و برك الماء. تقدم نحو شجرة الخروب العملاقة و الوحيدة بين أشجار الصفصاف. و كانت رائحة الخروب تنبعث منها كانبعاث رائحة الأمطار المنعشة من تلال البلدة. بعد ذلك انبرى إلى جدع تلك الشجرة و هو يرتعش من الخوف و البرد كما أنه لم يقدر على أن يخطو خطوة أخرى نحو المجهول. كان فقط يشم و يسمع و لكنه لم يكن ير شيئًا لذلك كان يتساءل في في تعجب : " أين اختفى كل زملائي ؟ و لماذا لم يكثر بي أي أحد في هذا الجو الصقيعي؟" كان يشم رائحة الخروب عسى أن تخفف عنه من ألم الجوع . و عندما فترت الأمطار سمع فجأة : " هيا ، اركب بسرعة " لقد علم أن أغلب التلاميذ سيرجعون إلى منازلهم على ظهور الدواب، و ما كان له إلا أن يجهد في البكاء لأنه لم يصدق في ذلك اليوم أن تكون أمه بعيدة عنه ؛ و هي التي كانت تصطحبه أو بالأحرى تحمله معها أينما حلت و ارتحلت. لقد صدق تخمينه ؛ أمه لن تفارقه . " بوشتي ، بوشتي ! " إنه صوت أمه . و بمجرد أن سمع النداء لم يبال بأي خطر فانطلق يتعقب صوت أمه و وسط البرك بينما هي لم تتوقف عن مناداته " بوشتي ، بوشتي " و كان صوتها الشجي الحزين يختلط تارة مع هدير الرعد و تارة مع

أزيز الرياح. و هو يهرول نحو صوت أمه، سقط في إحدى البرك و صاح : " ماما ، ماما " و فجأة انقضت الواضحة وسط البركة و أمسكت بوشتي مسكة " السوبرمان" و رفعته على ظهرها و سارت به قليلا ثم وضعتة على ظهر دابة. و كانت الواضحة لم تغادر المدرسة منذ أن أودعت ابنها في الفصل. خلعت البرنس الأزرق و وضعتة غطاء على ابنها . و بعد تلك المغامرة وصلا إلى البيت ، و دخلا على العياشي و هو ما برح يداعب سبحته الطويلة و يتحسى كوبا من القهوة. تقدم بوشتي نحو أبيه بخطى بطيئة ، ثم قَبِلَ يده و بدأ يحدثه عن يومه في المدرسة ، لكن الأب لم يكثر بكلامه و اكتفى فقط بتحريك رأسه و استمر في مداعبة سبحته. و كان بوشتي لم ينسَ الكيس الكبير الذي كانت أمه تحمله، و ما انفك متسائلا في استغراب بريء: " لماذا لم تتخل أُمي عن الكيس الكبير في الطريق رغم أنه كان خشنا و ثقيلًا من تحت تلك الأمطار. وكيف حولت أُمي الكيس الكبير إلى كيسين صغيرين؟! " أجل، كان ذلك الكيس الحل الوحيد لقضيته و إلا فلماذا كانت كلما عجزت عن حمله تجره؟؟!! " إنه الكيس السحري الذي حيّر الولد، لكنه لم يكن ليبوح بهذه الحيرة لأمه. و ها قد بدأت سداجة الطفولة تغلب على براءة الطفولة، فقرر أن يخبر أباه بموضوع " كيس الخيش". هذه هي المرة الوحيدة التي اهتم فيها العياشي بكلام ابنه. نادى زوجته : " تعالي يا الواضحة ، ما بال الكيس الذي يحكي عنه الولد؟ "

-لا شيء. إنه كيس كنتُ أضع داخله البرنس الأزرق.

-لا تكذبي يا الواضحة ؛ أما البرنس فكنت تلبسينه ! فما شأن كيس الخيش الثقيل الذي كنت تحملينه و أنتِ تصطحبين بوشتي إلى المدرسة، و الله إن لم تخبريني عن ما كان في ذلك الكيس لطلقتكِ حالاً.

نظرت الواضحة إلى بوشتي نظرات خيبة ، و كأن لسان حالها يقول : " لقد خذلتني يا بوشتي ، و لقد أصابت بعض القطط التي تأكل صغارها لأنها إن كبرت جحدت و قليلا ما تعترف بالجميل!!! "أما بوشتي فلم يكن يدري أنه أفشى سراً من الخطورة بمكان ، ولم يكن يعرف معنى " سأطلقك" بل مضى يبعثر أدواته المدرسية المزركشة و يلهو بها فوق الحصير لأنها بمثابة لعبه التي افتقدتها طيلة طفولته البئيسة. لقد كان تهديد العياشي للواضحة جدّيا و لا يقبل الهزل. الشيء الذي دفعها بأن تخبره : " خلال موسم الصيف جمعت عدة أكياس من روث البهائم الجاف و بدأت الآن ببيعها لسكان القرية المجاورة لكي يستعملونها وقودا للتدفئة و الطبخ و أجنبي أنا بعض النقود حتى أوفرها لوقت الشدة. و رد عليها : " و هل اشتريت له ما يلزمه؟ نعم اشتريت له كل شيء ، حتى معطف الصوف، و هذا باقي النقود سنحتفظ به لنواجه " دوائر الزمان". و لم تكذ الواضحة تنهي كلامها حتى سقطت السبحة من يد العياشي ، و كأن يبدو وكأنه متكئا لكن الواضحة أدركت أنه قد ودع الدنيا إلى غير رجعة. و لا زال بوشتي يتساءل : " لماذا لم تصطحبني أُمي معها عندما كانت تجمع روث البهائم؟! " تساءل الأب قبل موته : " لماذا لم تخبرني الواضحة بما كانت تقوم به؟" بينما كانت هي تتساءل في قرارة نفسها عن أمر واحد : " لماذا يتذمر الناس بعدم إخبارهم عن أفعال هي من واجب كل البشر ، المهم عندي هو أنني قد وجدتُ حــــلاً

ل : " قضية الولد. "